سلسلة أنوار الهدى (٢)

الإمام أبو عبيدة
مسلم بن أبي كريمة التميمي

(توفي عام ١٥٠ هجرية)

الدكتور/ صالح بن مطر الهطالي

سلسلة أنوار الهدى (٢)

الإمام أبو عبيدة
مسلم بن أبي كريمة التميمي

د. صالح بن مطر الهطالي

www.alhatali.com

بريد إلكتروني: saleh@alhatali.com

تويتر: @smalhatali

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

رؤى

واتساب: ٩٧٥٤٩٢٢٣

ruaadar@gmial.com

تويتر: @ruaadar

تنفيذ طباعي

دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان / بئر العبد - هاتف: ٠٠٩٦١ ٣ ٤١٣٢٥٦

موبايل: ٠٠٩٦١ ٣ ٩٠٢٩٤٤

E-mail: dar.alkari2012@gmail.com

بغداد - العراق / شارع المتنبي مدخل جديد حسن باشا

موبايل: ٠٧٧٢٢٢٩٧١٢١

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة لدى :

مركز غاية المراد للصوتيات والمرئيات

سلطنة عمان - نزوى

هاتف رقم : ٢٥٤١٠٨٧٣ - فاكس رقم : ٢٥٤١١١٩١

هاتف الإدارة : ٩٩٨٩٩٩٨٣

E-mail: ghayatalmurad@gmail.com

مكتبة وتسجيلات غاية المراد

مكتبة غاية المراد

GHAYET AL MURAD BOOKSHOP

مكتبة السيدة فاطمة الزهراء

هاتف: 92908620

25434506 92988061

أُوْلئِكَ القَوْمُ أَنْوارِي، هُدِيتُ بِهِمْ عُقْبَى مَحَبَّتِهِمْ عَفْوٌ وَغُفْرَانُ

أبو مسلم الرواحي

الأستاذ:	تفضلوا يا أبنائي، ادخلوا.
سعيد:	ما هذا يا أستاذي؟
الأستاذ:	هذا يُقال له سرداب يا سعيد.
أحمد:	وماذا تعني كلمة «سرداب»؟
الأستاذ:	السرداب عبارة عن غرفة تحت الأرض، ويُسمى أيضًا قبوًا، ويُستخدم أكثر في فصل الصيف لانخفاض درجة حرارته عن الهواء الخارجي.
سعيد:	وما علاقة السرداب بالشخصية التي تريد أن تُحدِّثنا عنها؟
الأستاذ:	لأن تلك الشخصية ارتبطت بالسرداب ارتباطًا وثيقًا.
ناصر:	لا أحسبُك تقصد إلا الإمام أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي.
الأستاذ:	أحسنتَ يا ناصر، توقُّعك في محلِّه؛ فالإمام أبو عبيدة كان يستخدم السرداب لتعليم طلابه، كما سأوضح ذلك لاحقًا.
محمد:	نحن نسمع عن الإمام أبي عبيدة ولكن لا نعرف عنه شيئًا.
الأستاذ:	لا بأس يا محمد؛ فبإذن الله ستعرفون اليوم عنه الشيء الكثير. اسمه الفعلي «مسلم»، وما نعرف عن أبيه أن كنيته «أبو كريمة»، وأما تكنيته بأبي عبيدة فنسبة لابنته عبيدة، ولقد عاش في البصرة وبرز فيها، ولكننا لا ندري متى وُلِد، وربما تكون ولادته بعد الإمام جابر بن زيد بسنوات قليلة.

ويُقال إنه كان مولًى[1] لعروة بن أُدَيَّة التميمي، أخي أبي بلال مرداس بن أُدَيَّة التميمي، وأيضًا كان فقيرًا أعورًا، وكل ذلك يجعل من الصعب على رجل بتلك الحال أن يصل إلى منزلة في العلم والرئاسة كالتي وصل إليها الإمام أبو عبيدة، ولكن العلم نور يقذفه الله في قلوب عباده، وإن كان الإمام أبو عبيدة قد فقد نور البصر فإن الله قد عوَّضه بنور البصيرة.

أحمد: ...ما ذكرته لنا يا أستاذي في الدرس الماضي هو أن الإمام جابر بن زيد الأزدي قد عاش أيضًا في البصرة، فهل عاشا في الفترة نفسها؟

الأستاذ: بعض المؤرخين يعدُّون الإمام أبا عبيدة تلميذًا للإمام جابر، وبعضهم يقول إنه أدرك من الصحابة مَن أدركه الإمام جابر بن زيد، ويخصُّون من بينهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر، رضي الله عنهم أجمعين، وقد يكون أدركهم في صباه، ولكنه أكثر ما أخذ العلم عن الإمام جابر بن زيد وجعفر بن السّماك وضمام بن السائب وصحار بن العباس العبدي وغيرهم، وصحار صحابيٌّ جليل.

وقد قال الإمام أبو عبيدة عن نفسه: "مَن لم يكن له أستاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين، وقد مَنَّ الله علينا بعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن سلام وهم الراسخون في العلم، فعلى آثارهم اقتفينا، وعلى سيرتهم

(١) كلمة "مولى" تأتي بمعنى الحليف والسيد والنصير، ومنها "مولى بني فلان" أي حليفهم، وتأتي بمعنى العبد أو التابع، كأن تقول: "كان من الموالي"، أي من العبيد.

اعتمدنا، وعلى منهاجهم سلكنا، والحمد لله كثيرًا"[١]، وقد بلغ شأنًا عظيمًا في العلم حتى قال عنه البدر الشماخي: "تعلَّمَ العلومَ وعلَّمها، ورتَّبَ روايات الحديث وأحكَمها، وهو الذي يُشارُ إليه بالأصابع بين أقرانه، ويزدحمُ لاستماع ما يقرع الأسماع من زواجر وعظه"[٢].

سعيد: ما دام الإمام أبو عبيدة قد أدرك أولئك الجهابذة من الصحابة والتابعين، ووصل إلى مرتبة عالية من العلم، فلا بُدَّ أن يكون له طلابٌ كُثْر.

الأستاذ: فعلًا يا ابني، إن الإمام أبا عبيدة قد تولى التدريس بعد الإمام جابر لأكثر من أربعين عامًا، ولذا فطلابه كُثْرٌ لا يُحصى عددهم، وقد انتشروا في جميع أصقاع الأرض؛ من خراسان شرقًا إلى المغرب غربًا ومن مصر والعراق شمالًا إلى عمان وحضرموت واليمن جنوبًا، وسأذكر لكم بعضًا منهم[٣]:

من **العراق**: أبو غسَّان مخلَّد بن العمرد الغساني، وخلف بن زياد البحراني، وعبد الملك الطويل، وشعيب بن المعروف، وسهل بن صالح، وأبو سعيد عبد الله بن عبد العزيز.

ومن **الحجاز**: محمد بن حبيب المدني، ومحمد بن سلمة المدني،

(١) دراسة في الفكر الإباضي، عمر با، ص ١٠٩.
(٢) السِّيَر، الشماخي، ج ١، ص ٧٨.
(٣) نفحات من السِّيَر، الجعبيري، ص ٣.

وأبو سفيان محبوب بن الرُّحيل بن هبيرة القرشي المكي، وأبو الحر علي بن الحصين.

ومن عمان: الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي، وبلج بن عقبة الذي وصفه شيخه أبو عبيدة بأنه بألف رجل، والجلندى بن مسعود الذي كان أول إمام في عمان، وأبو حمزة المختار بن عوف الأزدي، قائد الإمام طالب الحق في اليمن، وصاحب الخُطَب الشهيرة على منبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو عبيدة عبد الله بن القاسم المعروف بأبي عبيدة الصغير، وشبيب بن عطية، والفضل بن جندب، بالإضافة إلى حملة العلم الذين سنذكرهم بعد قليل.

ومن اليمن: سلمة بن سعد الحضرمي الذي كان له شأنٌ عظيمٌ في إيصال الدعوة إلى بلاد المغرب، وعبد الله بن يحيى الكندي الذي كان أول إمام في اليمن، وأبو الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي كان أول إمام في طرابلس بليبيا، وأبو أيوب وائل بن أيوب الحضرمي الذي تولى رئاسة الإباضية بالبصرة بعد رحيل الإمام الربيع بن حبيب إلى عمان، وأبو لمؤرِّج عمر بن محمد العمدي.

ومن خراسان: هلال بن عطية الخراساني الذي كان من الصُّفرية ثم صار إباضيًّا وأحد قادة الإمام الجلندى بن مسعود، وأبو بشر غانم بن بشر الخراساني صاحب المدونة المشهورة، وأبو عبد الله هاشم بن عبد الله الخراساني.

ومن مصر: محمد بن عبَّاد المصري، وعيسى بن علقمة المصري.

ومن شمال أفريقيا خلقٌ كثيرون مثل: أبي عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني النفوسي، وحملة العلم إلى بلاد المغرب الذين سنذكرهم بعد قليل.

محمد: إذن، إذا كانت تلك منزلة الإمام أبي عبيدة في العلم، فلا بُدَّ أنه صار له شأنٌ كبيرٌ في البصرة.

الأستاذ: نعم يا محمد؛ فمنزلة الإمام أبي عبيدة العلمية جعلت أهل الدعوة (أي الإباضية) يختارونه إمامًا لهم بعد موت الإمام جابر بن زيد في عام ٩٣ هجرية، وهذه تُسمى إمامة كتمان، لأنهم لا يستطيعون إظهار أمرهم بين الناس، وخاصة أنهم يعيشون داخل الدولة الأموية ذات البطش والظلم والجبروت.

ناصر: ذكرتَ لنا من قبل يا أستاذي أن الإمام جابرًا قد تعرَّض لأنواع من الأذى من قِبَل ولاة بني أمية، فهل تعرَّض الإمام أبو عبيدة لشيءٍ من ذلك؟

الأستاذ: نعم يا ولدي؛ فلقد سجنه الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في زمن عبد الملك بن مروان، وهو المعروف ببطشه وجبروته وتعذيبه للعلماء والمصلحين، ودخل معه السجن صاحبه ضمام بن السائب، وكان ذلك في الفترة التي لا يزال الإمام جابر بن زيد فيها الزعيم الروحي والسياسي للدعوة الإباضية، ومكث هو وضمام في السجن عشر سنوات إلى أن توفى الله الحجاج في عام ٩٥ هجرية.

وفي السجن تعرَّضا لكثير من الأذى؛ حتى يُذكَر أنهما كانا لا يجدان ما يحلقان به شعرهما أو يجزان به شواربهما أو يُقلِّمان به أظافرهما، وكان غالب طعامهم في السجن خبز الشعير يُغمس في ماء مملَّح، فأيُّ نفس تطيق ذلك إلا النفوس المؤمنة الراضية بقضاء الله وقدره؟ وما اقترفا من ذنبٍ إلا سعيهما لجعل الإسلام يبقى على نصاعته وصفائه كما جاء به الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ولم يكتفِ الحجاج بذلك، فطلب من طبيبٍ مجوسيٍّ أن يصف له طعامًا يُقدِّمه للشيخين بحيث يعذبهما ولا يقتلهما، ولكن الطبيب المجوسي كان أشفق بهما من الحجاج، فأخبره أن يطعمهما الزيت والكُرَّاث[1]، وهذا الطعام لا يضرُّ بالجسم، ولكن كما تعلمون أن النفس لو استمرت على أكل أفضل الطعام لأيام متوالية فإنها ستملُّ، فكيف بالزيت والكُرَّاث وقد بقيا عليه طيلة بقائهما في السجن، أي عشر سنوات؟

أحمد: يا الله لتلك النفوس، كيف تستطيع أن تتحمَّل مثل ذلك الأذى؟

الأستاذ: لا تتعجَّب يا أحمد؛ فإنه الإيمان بالله الخالص الذي رسخ في القلوب، وقد ذُكِر أن ضمام بن السائب كان- أحيانًا- يُبدي بعض التبرُّم من طول المكث في السجن، فيقول له الإمام أبو

(١) الكُرَّاث: نبات عشبي من الفصيلة الثومية، ويُطلق عليه (البَقْل) في بعض مناطق الخليج العربي.

عبيدة: «ويلك ما هناك؟ على مَن تضيق وعلى مَن تدل؟»[١]

محمد: ذكرتَ يا أستاذي أنه بعد موت الحجاج خرج الإمام أبو عبيدة وضمام بن السائب من السجن، فماذا عمل الإمام بعد ذلك؟

الأستاذ: لقد اشتُرِط عليهما لخروجهما أن لا يُدرِّسا حرفًا واحدًا، ولكن النفس التي استشعرت عظمة الأمانة التي حمَّلها إياها المولى سبحانه لم تكن لتترك أمر الأمة بتلك البساطة.

سعيد: إذن، فماذا فعل الإمام أبو عبيدة؟

الأستاذ: لقد اتَّخذ سردابًا تحت الأرض ليُعلِّم فيه الناس، وقام باستقبال طلبة العلم هناك، وجعل حارسًا على باب السرداب؛ فإذا مرَّ شخص حرَّك الحارس سلسلة تمتد إلى داخل السرداب، فيترك الإمام أبو عبيدة التدريس، ويشتغل هو وطلابه بصنع القُفَف[٢]، ولذلك اشتهر بين الناس بالقَفَّاف، فإذا زال الخطر، حرَّك الحارس السلسلة مرة أخرى، فيعاودون الدرس.

والحقيقة أن فكرة السراديب لم يخترعها الإمام أبو عبيدة، وإنما كان أصحابنا أهل الدعوة يستخدمونها منذ زمن أبي بلال مرداس بن أُدَيَّة التميمي[٣]، وكانوا في الأصل يختلون فيها للعبادة، ثم صاروا يجتمعون فيها لعقد الدروس والجلسات السِّرية، وربما

(١) الطبقات، الدرجيني، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٢) القُفَفْ: جمع قُفَّة، وهي الزبيل، وهو إناء يُصنع من سعف النخيل، والقَفَّافْ: صانع القُفَفْ.

(٣) الأصول التاريخية، خليفات، ص ٣٥.

كانت السراديب موجودة عند غيرهم من أصحاب الفِرَق الأخرى.

ناصر: إني أكاد لا أصدق ما أسمعه؛ فإن مثل تلك الطرق لا يقوم بها إلا سياسيٌّ مُحنَّك عرف كيف يتعامل مع الظروف الموجودة.

الأستاذ: حقًّا يا ناصر؛ فالإمام أبو عبيدة كان سياسيًّا بارعًا، ويدلُّنا على ذلك أنه كان على اطلاع بأحوال الأمة الاسلامية في ذلك الوقت؛ فكان يُرسِل طلابه لتحسُّس أخبار المسلمين في أقطار الإسلام، خاصة النائية منها، كما حدث أن أرسل سَلَمة بن سعد الحضرمي اليمني إلى شمال أفريقيا ليُطلعه على ما توارد إلى سمعه من جَوْر عُمَّال بني أمية هناك، ومن محاولة بعض المسلمين الارتداد عن دينهم لما يرونه من ظلم وجَوْرٍ في معاملتهم.

لم تكن مهمة سَلَمة بن سعد لتقتصر على نقل الأخبار إلى الإمام أبي عبيدة، وإنما كانت مهمته الكبرى هي في انتقاء طلبة للعلم الذين يمكن أن يلتحقوا بمعهد الإمام أبي عبيدة في البصرة، ثم ليعودوا بعد ذلك إلى بلدانهم دعاةً للمذهب الإباضي والفكر الإسلامي الأصيل، وبفضل الله ثم بجهود هذا الداعية العظيم الذي ضحى بحياته وأوقاته انتشر المذهب الإباضي في بلاد المغرب، وبقي فيها إلى يومنا هذا[1].

ولكم أن تتخيَّلوا يا أبنائي كيف يمكن لفردٍ أعزل أن يقطع

(١) الدعوة عند الإباضية، السيابي، ص ١٦.

الصحاري والقفار بعيدًا عن عيون الدولة الأموية، ويقضي خمس سنوات يخاطر بحياته وهو يخالط أناسًا ليس لديه بهم سابق معرفة، ولا يعرف لغتهم وعاداتهم وثقافتهم، وهو يقول: «وددتُ أن لو ظهر هذا الأمر من أوَّل النهار إلى آخره فلا أبالي إن متُّ بعد ذلك»[1]، ولذلك كان حريصًا على إيصال الفكر الإسلامي الصحيح لهم، وحريصًا على أن يبقوا في دائرة الإسلام ولا يرتدُّوا عنه بسبب أفعال ولاة بني أمية.

وتتعجَّبون إن أخبرتكم بأن سلمة بن سعد مكث خمس سنوات هناك لإتمام هذه المهمة، وأحضر معه بعض الطلبة الذين صاروا فيما بعد حملة العلم إلى المغرب. وإذا كان حال سلمة بن سعد رضي الله عنه الذي لا تذكره كتب التاريخ إلا نادرًا هو كما وصفتُه لكم، فكيف بحال حملة العلم إلى المشرق والمغرب الذين أسَّسوا الدول، وصارعوا قوى الباطل من أجل أن تعود للإسلام هيبته وسلطانه؟

محمد: هل لك يا أستاذي أن تُحدِّثنا عن حملة العلم؟

الأستاذ: نعم يا محمد، كما أخبرتكم فقد كان يَفِد إلى الإمام أبي عبيدة طلاب من أماكن كثيرة في العالم الإسلامي، وكان ينتقي مَن يتوسَّم فيه النجابة والشجاعة والمؤهلات القيادية فيُرسلهم بعد تعمُّقهم في أمور دينهم إلى أقطار شتى لنشر مبادئ الإسلام الصحيحة، وكان يُطلَق على أولئك الطلبة حملة العلم.

(١) معجم أعلام الإباضية، باباعمي، ج ٢، ص ١٩٠.

كان أولئك الطلبة يلازمون شيخهم الإمام أبا عبيدة ليلَ نهار لخمس سنوات، ويمكن أن تتصوَّروا مقدار العلم الذي اكتسبوه خلال تلك الفترة، ومما يُذكَر في ذلك أن الإمام أبا عبيدة خرج لتوديع حملة العلم إلى المغرب عندما أرادوا العودة إلى بلدانهم، فسأله أحدهم- وهو إسماعيل بن درار الغدامسي- أثناء التوديع ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام، حتى إن الإمام أبا عبيدة علَّق على ذلك بقوله: «أتريد أن تكون قاضيًا يا ابن درار؟»، فردَّ عليه: «أريتَ إن ابتُليتُ بذلك؟»[1]

من حملة العلم الذين أرسلهم الإمام أبو عبيدة إلى حضرموت طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي وأبو أيوب وائل بن أيوب الحضرمي وغيرهم.

وأرسل إلى عمان أبا سفيان محبوب بن الرُّحَيْل المخزومي القرشي وأبا جابر موسى بن أبي جابر الإزكوي ومحمد بن المعلَّى الكندي الفشحي (من قرية فشح بوادي السحتن بولاية الرستاق) وبشير بن المنذر النزواني ومنير بن النيِّر الريامي الجعلاني والجلندى بن مسعود المعولي (حفيد جيفر بن الجلندى بن المستكبر المعولي ملك عمان في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وغيرهم.

وأرسل إلى شمال أفريقيا سلمة بن سعد الحضرمي اليمني وأبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني وإسماعيل

(١) الطبقات، الدرجيني، ج ١، ص ٢١.

بن دِرار الغدامسي وعاصم السَّدراتي وعبد الرحمن بن رستم الفارسي وأبا داود القِبلِّي النفزاوي.

وأرسل إلى مكة المكرمة عليَّ بن الحرِّ بن الحصين، وإلى خراسان هاشم بن عبد الله الخراساني، وأرسل خلقًا كثيرين غير هؤلاء إلى أماكن أخرى.

كان الإمام أبو عبيدة يطمح من كل ذلك أن ينتشر الفكر الإسلامي الصحيح في تلك الأقطار البعيدة عن أنظار السلطة الأموية، وكان يطمح أيضًا في إقامة الإمامة في تلك الأقطار متى ما سَنَحَتْ الفرصة لذلك، ولذا فلا تعجبوا أن يتم مثل ذلك التنظيم الدقيق والمحكم في البصرة وهي مَهْد الدعوة، والمركز الرئيس لإدارتها.

أحمد: وهل كان الإمام أبو عبيدة على اتصال بكل تلك البلدان، وبحملة العلم الذين يرسلهم إليها؟

الأستاذ: نعم يا أحمد؛ فإن الدعاة وحملة العلم المنتشرين في مختلف الأمصار كانوا يأتونه بأخبار دعوتهم أولًا بأول، وكانوا أيضًا يستغلون مواسم الحج للالتقاء بالقادة ومشايخ البصرة للتشاور والتخطيط، فكان الإمام أبو عبيدة لا يُفرِّط في موسم الحج، أُسوةً بشيخه الإمام جابر ومشايخ الدعوة الآخرين؛ فكان يخرج بنفسه للحج، وأحيانًا يُرسل آخرين من فقهاء الدعوة ليُفتوا الناس في أمور دينهم، وفي الوقت نفسه لينشروا فكر الإسلام الصحيح بين الحجيج، وكان يطلب من بعض مشايخ الدعوة أن يبقوا في مكة

المكرمة ليفتوا الناس، كما فعل مع ضمام بن السائب[1]. وكانت تُنصَب للإمام أبي عبيدة خيمة في مكة المكرمة ليقوم من خلالها بنشر دعوته بين الحجاج.

سعيد: وكيف استطاع الإمام أبو عبيدة أن يُعلِّم تلك الأعداد الكثيرة من الطلبة وحملة العلم، رغم الرقابة الصارمة التي كان يتعرَّض لها من قِبَل الدولة الأموية؟

الأستاذ: أحسنتَ يا سعيد؛ فالإمام أبو عبيدة كان بارعًا في تنظيم مجالس العلم التي يدرس فيها طلابه؛ فقسَّمها إلى ثلاثة أقسام: قسم لعامة أصحابه وقسم للقادة من أهل الدعوة وقسم لحملة العلم، وكانت هناك أيضًا مجالس خاصة لنساء أهل الدعوة، ويكفينا أن نتكلَّم عن مجالس العامة لنرى السِّرية التامة، والاحتياطات التي كان يتَّخذها الإمام وأصحابه لجعل دعوتهم سِرًّا.

كانت المجالس العامة تُقام في بيوت مشايخ الدعوة وتُعرف بهم؛ فهذا مجلس عبد الملك الطويل وذاك مجلس أبي سفيان قنبر وهناك مجلس لأبي الحر علي بن الحصين العنبري ومجلس لأبي مودود حاجب الطائي، وكان لا يُسمح بحضور تلك المجالس إلا لِمَن يثقون أنه من أهل الدعوة، وكانوا- أحيانًا- يتخفَّوْن بملابس النساء حين يأتون إلى تلك المجالس، وبعضهم كان يتشبَّه بالباعة أو الحمَّالة حتى يدخل مجلس العلم.

(١) السِّيَر، الشماخي، ج ١، ص ٩٣.

وفي بعض الأوقات كانت تلك المجالس تُقام في بيوت العجائز لتضليل العيون التي تراقبهم؛ حتى إنه يُذكَر أنهم اجتمعوا مرة في بيت إحدى عجائز أهل الدعوة، فعلموا بمقدم الشرطة، فأخرجتهم المرأة من بابٍ خلفي، وتركوا نعالهم عند الباب الأمامي، فلما رأى الشرطة النعال سألوا المرأة عنها، فقالت: «مكاتبٌ لنا (أي عبدٌ كاتبَنا لنيل حريته) يسأل الناس فيُعطى النعال وغيرها»[1].

سعيد: يا الله، إذا كانت تلك درجتهم من السِّرية في مجالس العامة، فكيف بالمجالس الأخرى؟

الأستاذ: الحقيقة أن المجالس الأخرى كانت مقصورة على أشخاص مُعيَّنين، ومنهم حملة العلم، وكانوا يلتقون بالإمام في السرداب الذي جعله خِصِّيصًا لذلك، وأما مجالس الشيوخ أو قادة الدعوة فكان الإمام يلتقي فيها بقادة الدعوة المنوط بهم وضع سياسات الحركة، فكانوا يتشاورون معه في الخطوات التي عليهم اتخاذها حيال الظروف التي تطرأ، والخطط التي عليهم السَّيْر بمقتضاها لإقامة الإمامة العظمى، متى ما سنحت الظروف لذلك، وكانت تلك المجالس تُعقَد في الليل، وربما يطول انعقاد المجلس الواحد من صلاة العشاء إلى الفجر.

ومما يُذكَر عن درجة السِّرية الكبيرة التي كانت تلك المجالس تُحاط بها أن قادة الدعوة كانوا مرة مجتمعين في بيت أبي مودود

(١) الطبقات، الدرجيني، ج ٢، ص ٢٥٠.

حاجب الطائي، فجاءه شعيب بن عمرو- أخو زوجته- يزوره، وكان بيته يبعُد لأكثر من ثلاثة أميال عن بيت أبي مودود، فرفض أبو مودود استقباله في ذلك الوقت، وطلب منه الرجوع إلى بيته[١].

كذلك، فقد اتَّخذ الإمام أبو عبيدة نهجًا خالف فيه ما كان عليه الإمام جابر؛ وهو أنه منع أصحابه وطلابه من التعامل المباشر مع الولاة والحكام، وطلب منهم عدم قبول أية مناصب أو تناول أيِّ مالٍ منهم، وهدفه من وراء ذلك المحافظة على سرية الحركة، ومنع الإغراءات لبعض أتباع الدعوة، بل إنه منع التزاوج بين أفراد الدعوة وغيرهم من المسلمين، مع أنه أمرٌ مباحٌ عند الإباضية، والهدف كان أيضًا لمنع اختلاط أهل الدعوة بغيرهم وتسريب المعلومات عن الحركة وأتباعها[٢].

ورغم انتشار حملة العلم والدعاة في مختلف الأمصار، ورغم ما كان يتعرَّض له أتباع الدعوة من سجن وتعذيب ومضايقات من قِبَل السلطة الأموية وولاتها، غير أنه لم يحدث أن أحدًا من أتباع الإمام أبي عبيدة أو من أتباع هؤلاء أفشى سِرَّ الحركة، أو دلَّ على أحدٍ من شيوخها، وذلك أيضًا يصبُّ في جانب التربية الأمنية التي تغذَّى بها أولئك الأفذاذ رجالًا ونساءً.

ناصر: وماذا عن مجالس النساء؟

(١) السِّيَر، الشماخي، ج ١، ص ٨٤.
(٢) الأصول التاريخية، خليفات، ص ٤٦-٤٩.

الأستاذ: لقد اهتم الإمام أبو عبيدة بالنساء اهتمامه بالرجال؛ فكانت لهنَّ دروس خاصة، وكانت بعض الدروس السِّرية لحملة العلم وقادة الدعوة تُقام في بيوت بعضهن- كما ذكرتُ-، حتى إن إحدى النساء اتخذتْ في بيتها سردابًا يجتمع فيه شيوخ الإباضية في الليل[1]، وبعضهن كُنَّ يشاركْنَ في الحروب، وبعضهنَّ قُمْنَ بجمع المال، وتمويل الحركات التي تقوم لأهل الدعوة وهو ما يدلُّ على انغراس مبادئ العقيدة في نفوسهنَّ، وكانت امرأة أبي حمزة الشاري تُلهب حماس الرجال بشعرها، وتُحرِّضهم على الجيش الأموي[2].

أحمد: وهل كان الإمام أبو عبيدة يقوم بكل ذلك بنفسه؟

الأستاذ: لا يا أحمد؛ فإنه من الصعب على رجل واحد أن يتولى إدارة تلك المجالس بنفسه، ولذا حمَّل بعض أصحابه مسؤولية إدارة شؤون الدعوة المختلفة؛ مثلما أوْعَزَ إلى أبي مودود حاجب الطائي الأمور العسكرية والمالية، وإلى أبي سفيان قنبر متابعة مجالس النساء، وكان يُرسل بعض أصحابه المقرَّبين لحلِّ النزاعات بين أتباعه المنتشرين في الأمصار؛ مثلما أرسل أبا مودود- وكان المسؤول عن شؤون الدعوة خارج البصرة- إلى حضرموت لحلِّ نزاع بين أهل الدعوة أدى إلى عزلهم لأميرهم

(١) السِّيَر، الشماخي، ج ١، ص ١١٤.
(٢) الحركة الإباضية، هاشم، ص ٨٥.

عبد الله بن سعيد[١].

محمد: يا أستاذي: إنك تتحدَّث عن الأمور العسكرية والمالية ومجالس النساء وغيرها وكأنك تتكلم عن دولة قائمة.

الأستاذ: لا تتعجَّب يا ولدي؛ فالإمام أبو عبيدة كان فعلًا يُدير دولة، ولكنها ليست دولة واحدة فقط وإنما دول؛ فقد كانت الدعوة الإباضية تمرُّ في ذلك الوقت بمرحلة من التنظيم المتطوِّر ليس في البصرة فحسب، وإنما أيضًا في أماكن أخرى.

وقد استغلَّ الإمام أبو عبيدة ومشايخ الدعوة في البصرة فترة حكم سليمان بن عبد الملك والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز في تنظيم دعوتهم للوصول إلى الهدف الأسمى الذي كانوا يسعون إليه، وهو تأسيس إمامة الظهور، والتي حصلت فعلًا بعد سنوات قلائل[٢].

وقد بنى الإمام أبو عبيدة مجتمعًا داخليًّا خاصًّا لأهل الدعوة تسوده الألفة والمحبة، ويتعاون فيه الأغنياء لسدِّ حاجات الفقراء لكي لا تُلجئهم الأحوال للاستعانة بغيرهم، وأسَّس لذلك بيت مالٍ خاصٍّ بهم، وكان الأغنياء يتسابقون لإعانة إخوانهم الفقراء في البصرة والآخرين المنتشرين في الأمصار، ولسداد ديون مَن يموت من أهل الدعوة وعليه دين، كما فعل أحد الأغنياء عندما مات أبو مودود حاجب الطائي.

(١) الطبقات، الدرجيني، ج ٢، ص ٢٥١، السِّيَر، الشماخي، ج ١، ص ٩٧.
(٢) الأصول التاريخية، خليفات، ص ٣٤.

ناصر: هل لك يا أستاذي أن تُوضِّح لنا المزيد عن الأمور المالية؟

الأستاذ: حسنًا، كما تعلمون فإن الدعوة في طور نشأتها وبتلك الأهداف التي تريد تحقيقها، لا بُدَّ لها من مالٍ يدعم نشاطاتها، ولذا فرض الإمام أبو عبيدة على أهل الدعوة شيئًا من المال يُؤدُّونه كلٌّ حسب طاقته، بالإضافة إلى التبرعات التي كان أغنياء الدعوة يؤدونها، ومن ذلك ما كانت تقوم به النساء المهلَّبيات من إمداد الدعوة بالمال، وكانت تلك الأموال تُنفَق على شراء السلاح والأمور الأخرى التي تحتاج إليها الدعوة.

ومما يُذكر من سخاء أغنياء أهل الدعوة أن أبا مودود حاجب الطائي- وهو المسؤول عن الشؤون العسكرية والمالية كما ذكرنا- توفي وعليه دَيْنٌ قيمته خمسون ألف درهم، فتبرع أحد أغنياء الدعوة بسداد جميع دينه.

سعيد: ماذا عن الإمامات التي أقامها الإمام أبو عبيدة؟ متى نشأت، وفي أيِّ البلدان؟

الأستاذ: يا أبنائي: إن إقامة الإمامة من الأمور التي تمسَّك بها الإباضية منذ نشأتهم وإلى وقتٍ قريب، فصارت مما يُميِّزهم عن غيرهم من الفِرَق الإسلامية الأخرى[1]؛ حتى إنه في عمان وحدها قامت أكثر من ستين إمامة عدل خلال ما يقارب ١٣٠٠ عام، ساروا فيها سيرة العُمَرَيْن أبي بكر وعمر رضوان الله عليهم، ولم يُؤْثَر عن

(١) من مميزات الإباضية، الحارثي، ص ٩.

أحدهم مجونٌ ولا فسقٌ ولا ظلمٌ ولا تخاذلٌ عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

وقد جدَّ الإمام أبو عبيدة وأصحابه واجتهدوا في التخطيط والإعداد إلى أن مكَّن الله لهم إقامة ثلاث إمامات في فترة حياة الإمام أبي عبيدة فقط، ثم توالت بعده بشكل شبه متواصل إلى قريبٍ من وقتنا هذا هنا في عمان، واستمرت لما يقارب قرنين في بلاد المغرب، ومن التخطيط لإقامة الإمامة أنه أرسل طلبته المسمَّيْن بحملة العلم إلى أماكن عديدة لنشر الدعوة، ولتحيُّن الفرصة المواتية لإعلان إمامة الظهور في مناطقهم، إن سمح لهم مشايخ البصرة بذلك.

كانت أولى الإمامات في عهد الإمام أبي عبيدة في حضرموت على يد الإمام عبد الله بن يحيى الكندي- الملقب بطالب الحق- في سنة ١٢٨ هجرية، والثانية[2] كانت في عمان على يد الإمام الجلندى بن مسعود في سنة ١٣٢ هجرية، والثالثة كانت في شمال أفريقيا سنة ١٤٠ هجرية على يد أبي الخطاب المعافري اليمني، ومما يُذكَر أن الجيوش الأموية لم تتمكَّن من القضاء على إمامات الإباضية إلا بالخدعة والحِيَل، كما حدث في الثوارت

(١) الإباضية في ميدان الحق، المسقري، ص ١٦٥.

(٢) كانت هناك إمامة قبلها دامت وقتًا قصيرًا هي إمامة الحارث وعبد الجبار بطرابلس، وكانت في حوالي سنة ١٣٠هـ.

الإباضية التي قامت في بلاد المغرب[1].

أحمد: وهل كان الإمام أبو عبيدة على علمٍ بكل تلك الإمامات؟

الأستاذ: بالطبع يا أحمد؛ فلم يكن لأهل الدعوة أن يُقْدِموا على مثل تلك الثورات بدون استشارة مشايخهم في البصرة، وكان المشايخ يمدُّونهم بالمال والعَتَاد والرجال، وأحيانًا كان القادة والأئمة في تلك الثورات والإمامات من بلدان أخرى، عيَّنهم عليها الإمام أبو عبيدة نفسه؛ فمثلًا كان أبو حمزة الشاري- أحد قُوَّاد الإمام طالب الحق في اليمن- من عمان، وكان معه بلج بن عقبة الذي هو أيضًا من عمان، والإمامة الأولى التي أُقيمت في شمال أفريقيا كان يتزعَّمها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، والإمامة الرستمية التي أُقيمت في تاهرت بالجزائر كان يتزعَّمها عبد الرحمن بن رستم الفارسي الأصل.

ناصر: وماذا كان موقف الدولة الأموية من تلك الثورات والإمامات؟

الأستاذ: بالرغم من تخطيط الإمام أبي عبيدة لجعل تلك الثورات والإمامات بعيدًا عن مقرِّ حكم بني أمية، إلا أن الدولة الأموية كانت بالمرصاد لكل ما يُثار ضدها، ففي اليمن تم تنصيب طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي إمامًا عليها، فاستطاع أن ينتزع حضرموت واليمن من أيدي العمال الأمويين، ثم أرسل قائده أبا حمزة ليضمَّ الحجاز، فدانت له مكة والطائف بدون قتال، ثم

(١) اللمعة المضيئة، قشار، ص ١٩-٢٤.

توجه إلى المدينة المنورة، وهناك تجمَّع لقتاله أناسٌ لا دراية لهم بالحرب، فهزمهم وخطب خُطبَه المشهورة على منبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن ما إن وصلت تلك الأخبار للدولة الأموية حتى أرسل الحاكم الأموي مروان بن محمد جيشًا استطاع أن يتغلَّب على أبي حمزة الشاري وأتباعه، ثم واصل الجيش الأموي سيره إلى حضرموت والتقى بطالب الحق، وألحق به وبأتباعه هزيمة تفرَّق بسببها مَن بقي من رجال طالب الحق في حضرموت واليمن.

محمد: وماذا عن الإمامات في عمان وشمال أفريقيا؟

الأستاذ: أما في عمان، فقد بقي الإمام الجلندى بن مسعود في إمامته سنتين، ثم جاء جيش العباسيين لقتاله، وكاد الإمام الجلندى أن يهزمهم لولا إضرام القائد العباسي النار في بيوت الإمام وأصحابه، فاهتمُّوا بالدفاع عن بيوتهم ونسائهم وأولادهم، فألحق القائد العباسي بهم القتل، واستُشهِد الإمام الجلندى عليه رحمة الله في تلك المعركة، وبقيت عمان تابعة للدولة العباسية إلى عام ١٧٧ هجرية، ثم استطاعوا طرد العباسيين وإقامة الإمامة الثانية بزعامة محمد بن عبد الله بن عفان اليحمدي.

أما في شمال أفريقيا، فكانت هناك محاولات عدة لإقامة الإمامة، ونجحت بعضها لفترة، ثم قضى عليها بنو العباس، ولكن في عام ١٤٠ هجرية استطاع أهل الدعوة إقامة إمامة في طرابلس بليبيا، ونصَّبوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إمامًا لها،

فاستطاع ضمَّ معظم بلاد الشمال الأفريقي، ولكن العباسيين أرسلوا له جيشًا تبادل معه النصر والهزيمة إلى أن انتهت بمقتل أبي الخطاب عليه رحمة الله، وقتل معه كثيرٌ من أصحابه.

بعدها، بقي أهل الدعوة تحت حكم الدولة العباسية إلى أن استطاعوا في سنة ١٦٠ هجرية إقامة الدولة الرستمية في تاهرت بالجزائر بقيادة الإمام عبد الرحمن بن رستم الفارسي، الذي كان أحد طلبة الإمام أبي عبيدة، وأحد حملة العلم إلى بلاد المغرب، واستمرت قرابة ١٣٦ عامًا، إلى أن سقطتْ على يد أبي عبد الله الشيعي عام ٢٩٦ هجرية، بعد الفتنة التي جرت بين الإمام أبي حاتم- آخر أئمة الدولة الرستمية- وإخوته.

سعيد: وأمام كل تلك الثورات التي خطَّط لها الإمام أبو عبيدة، هل كانت الدولة الأموية أو العباسية تعلمان أنه كان المخطِّط الفعلي لها؟

الأستاذ: أحسنتَ يا سعيد، فكما قلتُ فإن التنظيم الدقيق والسِّري جعل الأمويين والعباسيين يظنون أنها مجرد ثورات تقوم بها جماعات مناوئة لحكمهم، ولم يَدُرْ في خَلَدِهم أن أبا عبيدة هو المنظِّم لها بالرغم من علمهم بأن الأفكار التي ينادي بها هو وأصحابه هي نفسها أفكار أصحاب الثورات.

ناصر: الحقيقة أننا لا ندري أنعجب من ذكاء أبي عبيدة ودرايته والتنظيم الذي قام به، أم من تفاني أصحابه في إقامة دولة الإسلام متى ما سنحت لهم الفرصة بذلك، أم من إغواء الشيطان للأمويين والعباسيين بمحاربة وقتل مَن يريدون إرجاع الإسلام إلى مساره الصحيح.

الأستاذ: لا تعجب من ذلك يا ولدي؛ فالأمة الإسلامية قد بلغت فى ذلك الوقت مبلغًا من الانحطاط الخلقي والديني، بدأ من قصور الحكام والولاة التي كانت تنتشر فيها المغنيات والراقصات، وتفشى فيها شرب الخمور، هذا بالإضافة للوقوف بالمرصاد أمام كل مَن يقول كلمة الحق أو يحاول إرجاع الأمور إلى نصابها، ثم بسبب تمييع الخلفاء والولاة للجماهير، ابتعد كثيرٌ من الناس عن مستوى الحياة الإيمانية والخلقية والفكرية التي كان عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فانتشرت بينهم أيضًا المعازف والقيان وشرب الخمور، وصاروا لا فقه لهم في الدين، ولا دراية لهم بالحروب.

أحمد: كلنا يعرف عدل الخليفة عمر بن عبد العزيز، فماذا كان موقف أبي عبيدة وأصحابه من ذلك الخليفة العادل؟

الأستاذ: يا أولادي، إن جماعة المسلمين- كما كانوا يُسمُّون أنفسهم في ذلك الوقت- لم يكن همُّهم أن يقوم بإرجاع الأمة الإسلامية إلى مسارها الصحيح أمويٌّ أم عباسيٌّ أم أعجميٌّ، ولذلك لم يقف أبو عبيدة وأصحابه موقف العداء من أشخاص بعينهم، وإنما كانوا يُعادون كلَّ مَن يفعل ما يناقض تعاليم الاسلام، ويناصرون كلَّ مَن يريد أن يقيم الإسلام، ولذا فعندما سمعوا بعدل الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز، أرسلوا له وفدًا برئاسة جعفر بن السِّماك العبدي العماني، وطلبوا من الخليفة أن يقضي على البدع التي أحدثها حكام بني أمية السابقون، ومنها لعن الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه على المنابر، فوعدهم بأن يُميت كل

يوم بدعة ويُحيي كل يوم سُنَّة، ورجعوا عنه راضين.

سعيد: هل لك يا أستاذي أن تُعطينا نماذج لبعض طلاب الإمام أبي عبيدة من عمان الذين اشتهر صيتهم بين الناس؟

الأستاذ: معظم طلاب الإمام أبي عبيدة، سواءٌ أكانوا من عمان أم من غيرها من الأمصار، صار لهم شأنٌ عظيم في أيام الإمام أبي عبيدة وبعده، وسواءٌ كانوا في البصرة أم بلدانهم، وتلبية لطلبك سأذكر لك ثلاثة نماذج من هؤلاء من عمان:

أولهم الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي رضي الله عنه، وأصله من بلدة غضفان بولاية لوى، ثم سافر إلى البصرة لتلقي العلم على يد الإمام جابر بن زيد ثم الإمام أبي عبيدة، وتولى زعامة المذهب بعد موت الإمام أبي عبيدة في عام ١٥٠ هجرية، أي في أيام أبي جعفر المنصور، وفي أواخر حياته عاد الإمام الربيع إلى بلده غضفان وتوفي فيها.

كان ذا فضلٍ عظيم وشأنٍ كبير عند شيخه الإمام أبي عبيدة؛ فقد ذكر ربيبه (ابن زوجته) أبو سفيان محبوب بن الرُّحيل أن أبا مودود حاجب الطائي ذكر الربيع في حضرة الإمام أبي عبيدة، فقال الإمام عنه: «فقيهنا وإمامنا وتقيُّنا»[1]، ولذلك كان الإمام أبو عبيدة عندما يتعذَّر له الخروج لموسم الحج، كما كان يفعل شيخه الإمام جابر، كان يبعث الإمام الربيع مكانه، مع علمه أن

(١) الطبقات، الدرجيني، ج ٢، ص ٢٧٦.

الذهاب للموسم ما كان للإفتاء فقط، وإنما لنشر فكر الدعوة بين الحجاج لكسب أنصارٍ جُدُد لها، وللتواصل مع أتباعها ودعاتها المنتشرين في الأمصار[١].

لقد قام الإمام الربيع بعد تزعُّمه لأهل الدعوة في البصرة بحقوق جماعة المسلمين خير قيام، فكان من أول ما قام به إحصاء مَن ينتسبون إلى الجماعة من أهل البصرة، فوجدهم ربيبه أبو سفيان محبوب بن الرُّحيل أكثر من ٨٠٠ ألف نسمة[٢]، فما بالك بأتباعها في بقية الأمصار، وكان هدفه من ذلك الإحصاء ضبط الأُعطيات، وإعانة أصحاب الحاجات منهم، ولجمع زكاة المال من أغنيائهم وردِّها في مستحقيها.

كذلك، فقد بقي الإمام الربيع المرجع الفقهي والسلطة العليا لأهل الدعوة حتى مع وجود الإمامات التي قامت في عمان وبلاد المغرب بعد وفاة الإمام أبي عبيدة، وكان على تواصلٍ معهم رغم بُعد المسافة بينهم، ولم تُثنه تلك الانشغالات عن التدوين؛ فأنتم تقرؤون مسند الإمام الربيع الذي هو أصح كتاب عند الإباضية بعد كتاب الله، نظرًا لسلسلته الذهبية القصيرة؛ فقد روى الإمام الربيع معظم أحاديثه عن شيخه الإمام أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن أحد الصحابة، وهناك أيضًا كتابٌ آخر يُسمى آثار الربيع جمع أحاديثه أبو صفرة عبد الملك بن صُفرة عن

(١) نفحات من السِّيَر، الجعبيري، ص ٦-٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٨.

الربيع عن ضمام بن السائب عن جابر بن زيد، وهناك العديد من فتاواه وآرائه الفقهية والكلامية مبثوثة في الكتب[1].

محمد: هل يعني يا أستاذي أن مسند الإمام الربيع بن حبيب المعروف بالجامع الصحيح هو من تأليف الإمام الربيع عليه رحمة الله؟

الأستاذ: أحسنت يا محمد على هذا السؤال المهم، والجواب عليه بنعم ولا؛ فمن ناحية فإن ما دوَّنه الإمام الربيع بنفسه هو فقط ٧٥٠ حديثًا، وهذه تُشكِّل الجزأين الأول والثاني من الكتاب الذي بأيدينا الآن، وأما بقية الأحاديث في الجزأين الثالث والرابع فهي من إضافات الإمام أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني الذي قام بترتيب أبواب المسند الأصلي، ثم أضاف إليها آراء الإمام الربيع التي احتجَّ بها على مخالفيه في مسائل مختلفة، وهذه تُشكِّل الجزء الثالث من الكتاب، وأما الجزء الرابع فضمَّنه روايات للإمام محبوب بن الرُّحيل القرشي عن الإمام الربيع وروايات الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي عن أبي غانم بشر بن غانم الخراساني.

ناصر: فهمتُ الآن. أحسنتَ يا أستاذي، ومن فضلك واصل ذكر طلاب الإمام الربيع.

الأستاذ: من طلابه من عمان أيضًا أبو حمزة المختار بن عوف السليمي، وهو المعروف بأبي حمزة الشاري، وأصله من قرية مجيس في

(١) المرجع السابق، ص ٢٢-٢٤.

ولاية صحار، ثم رحل إلى البصرة، وتلقى العلم على يد الإمام أبي عبيدة، ونبغ في البلاغة، ولذلك اشتهر بخطبه البلاغية المؤثِّرة.

ولما ثار أهل الدعوة في اليمن على الأمويين، طلب الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي من شيوخه في البصرة الْمَدَد، فأمدَّه الإمام أبو عبيدة برجلين هما أبو حمزة الشاري وبلج بن عقبة، وأرسل إليه يقول له: «إنا بعثنا لك برجل إنجيله في صدره»، ويقصد به أبا حمزة، «وبعثنا لك اثني عشر رجلًا وألفًا»، ويقصد بالألف بلج بن عقبة[1]، فكان يُعدُّ بألف رجل لشجاعته وقوته.

وقد بيَّنتُ من قبل أنه ما إن وصل أبو حمزة الشاري إلى اليمن، وبايع طالب الحق بالإمامة، حتى عيَّنه قائد جيشه، ثم أرسله إلى الشام لمواجهة الأمويين في عُقْر دارهم، ولقتال مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، فمرَّ مكة في يوم عرفة، فدانت له مكة والطائف بغير قتال، ثم اتَّجه صوب المدينة فسمع أهلها بمقدمه، فتصدَّى له بعضهم في منطقة خارج المدينة تُسمى قُدَيْد، فقاتلهم وهزمهم، ففرَّ عامل الأمويين في المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام، وظلَّ أبو حمزة الشاري في المدينة قرابة ثلاثة عشر شهرًا، اعترف له أهلها بالصلاح والعدل، إلا أنهم لم يساندوه خوفًا من جور الأمويين وبطشهم، وفي تلك الفترة ألقى خطبه الشهيرة على منبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) السِّيَر، الشماخي، ج ١، ص ٩١.

طبعًا، لم يرضَ الأمويون أن يبقى أبو حمزة مسيطرًا على الحرمين، فوجَّه إليه مروان بن محمد جيشًا كبيرًا بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، فحارب أبا حمزة في المدينة، ولم يستطِع أبو حمزة وأصحابه الصمود لعدم تكافؤ الجيشين، ففرُّوا باتجاه مكة، فتعقَّبهم عبد الملك، ووقعت بينهم سنة ١٣٠ هجرية وقعة استشهد فيها أبو حمزة وأكثر مَن كان معه من أتباعه.

أحمد: رحم الله أبا حمزة وأصحابه رحمة واسعة، وأسكنهم فسيح جناته. هل تسمح لي يا أستاذي أن آتي بخطبة أبي حمزة الشاري المشهورة؟

الأستاذ: ما شاء الله.. أنت تحفظها؟ إذن، فلنسمعها منك.

أحمد: يقول أبو حمزة المختار بن عوف السليمي الأزدي رحمه الله:

«يا أهل المدينة: تُعيرونني بأصحابي، تزعُمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا شبابًا؟ نعم؛ شبابٌ والله مكتهلون في شبابهم، غضيضةٌ عن الحرام أعينهم، بطيئةٌ عن الشر أقدامهم، أنضاءُ عبادة وأطلاحُ سَهَر، موصولٌ كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، قد أكلت الأرض جباهَهم وأيديهم ورُكَبَهم من طول السجود، مصفرةً ألوانهم، ناحلةً أجسامهم من كثرة القيام وطول الصيام.

لقد نظر الله إليهم في جوف الليل منحنيةً أصلابهم على أجزاء

القرآن، إذا مرَّ أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقًا إليها، وإذا مرَّ بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه، مستقلون ذلك في جنب الله، مستنجزون لوعد الله.

حتى إذا رأوا سهام العدو قد فُوِّقت، ورماحه قد أُشرعت، وسيوفه قد انتُضيت، وأرعَدت الكتيبة بصواعق الموت وأبرقت، استهانوا وعيدَ الكتيبة بوعد الله، تلقَّوْا شبا الأسِنة، وشائكَ السهام، وحدَّ السيوف بوجوههم وصدورهم ونحورهم، ومضى الشاب هنالك قُدُمًا، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، فخرَّ صريعًا في الثرى، ورُمِّلَتْ محاسنُ وجهه بالدماء، وأسرعت إليه سباعُ الأرض، وانحطَّ إليه طيرُ السماء.

فكم من عينٍ في منقار طائرٍ طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خشية الله؟ وكم من يدٍ أُبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده لله؟ وكم من خدٍّ عتيقٍ قد فُلِقَ بعُمْد الحديد؟ فرحم الله تلك الأبدان، وأدخل أرواحهم الجنان».

سعيد: اللهم آمين اللهم آمين. يا الله ما أروعها من خطبة، وما أعظمها من كلمات، وما أعظم البون الشاسع بين ما كانوا عليه وما صرنا نحن إليه.

الأستاذ: أجل يا سعيد، إن أولئك العظام ما كانوا ليُقيموا تلك الدول لولا إيمانهم القويُّ بالله عزَّ وجلَّ وتمسُّكهم بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام.

محمد: ومَن هو النموذج الثالث يا أستاذي؟

الأستاذ: إنه **أبو عبيدة عبد الله بن القاسم**[1]، المعروف باسم أبي عبيدة الصغير لتمييزه عن شيخه الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، وكان في الأصل من قرية بسياء بولاية بهلا، ثم انتقل إلى صحار وعاش فيها، ثم ذهب إلى البصرة لتلقِّي العلم، فتعلَّم على يد الإمام أبي عبيدة مسلم، ثم على يد الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي، وذهب مع بعض أصحابه في رحلة إلى الصين، استغرقت عامين إلى أن عاد إلى صحار، وفي تلك الرحلة قام هو وأصحابه بنشر الإسلام في بلاد الصين، أي أن الإسلام بدأ ينتشر في بلاد الصين منذ القرن الثاني الهجري بفضل الله، ثم بجهود طلاب الإمام أبي عبيدة مسلم- عليهم رحمة الله جميعًا-.

وعندما بدأت العلاقات الدبلوماسية بين عمان والصين في سبعينات القرن الميلادي الماضي، اكتشفت الحكومة العمانية وجود سجلات تُشير إلى وجود هؤلاء هناك في ذلك الزمان، ولذلك قامت سلطنة عمان في عام ٢٠٠٩م ببناء مسجدٍ باسم أبي عبيدة في مدينة كانتون (جوانجو حاليًا) التي وصلوا إليها، تخليدًا لذكرى أبي عبيدة الصغير، وتم كتابة لوحة بجانبه فيها ترجمة لحياة عبدالله بن القاسم باللغات العربية والإنجليزية والصينية.

ناصر: آهٍ آهٍ، إنني عندما أسمع عن تلك الأحداث وأولئك العظماء

(١) الدعوة عند الإباضية، السيابي، ص ٥١.

لأشعُر وكأن صائحًا بداخلي يناديني: ذاك ما قدَّمه أجدادُك، فماذا أنت فاعل؟ وأقولها بصراحة يا أستاذي أني أشعر وكأني واحد ممَّن درس على يد الإمام أبي عبيدة، وطلب مني أن أكون من حملة العلم فأنشر أمر ديني، وأعيد لأمتي مجدها وعزها.

الأستاذ: بارك الله فيك وفي أمثالك يا ولدي، فكما رأيتم فإن أجدادنا لم يكونوا ليفوِّتوا لحظة من عمرهم في سبيل نشر هذا الدين، بالرغم مما كان يعانيه بعضهم من أسباب تكفي لتكون له عذرًا عن القيام بالواجب، كما هو حال الإمام أبي عبيدة، ولكنهم رضي الله عنهم أجمعين باعوا أنفسهم لله، فلم يكونوا ليُبالوا في سبيل ذلك بوقتٍ أو جهدٍ أو نفسٍ أو مالٍ، وبسبب ذلك مكَّن الله لهم ما سَعَوْا لأجله، وأيَّدهم بنصره أينما حلُّوا، فحريٌّ بنا نحن اليوم أن نتشبَّه بهم، ونسير على خطاهم.

أحمد: صدقتَ يا أستاذي؛ فإن مَن ينظر إلى حال الإمام أبي عبيدة، وكونه كان أعورًا فقيرًا ومولًى، ليشكُّ أنه يستطيع القيام بمثل ما قام به، ولكنها مشيئة الله سبحانه وتوفيقه.

سعيد: ومعرفة تلك الشخصيات العظيمة لا تُثْري ثقافتنا التاريخية فحسب، وإنما تُذكِّرنا أيضًا بالجهاد المستمر والعمل الدؤوب الذي كان يتحلى به أجدادنا، ولذا فهي بمثابة المحرك الذي يمدُّنا بالطاقة الروحية والمعنوية.

محمد: من أجل ذلك يا أستاذي نسألك مواصلة دروسك هذه، ونحن مستعدُّون لحضورها حتى وإن كانت صباح مساء.

الأستاذ: بارك الله فيكم، ولكن النفوس إذا كلَّتْ مَلَّتْ، وأنا أريد أن يستمرَّ شوقكم لهذه الدروس، ولذا نكتفي اليوم بما تحدَّثنا عنه، وقبل أن نختم لو تقرأ لنا يا محمد أبيات الإمام السالمي عليه رحمة الله التي تتحدَّث عن انتشار المذهب الإباضي في أرجاء المعمورة.

محمد: حسنًا يا أستاذي. يقول الإمام نور الدين السالمي رحمه الله ورضي عنه في كتابه (جوهر النظام في عِلمَيْ الأديان والأحكام)[1]:

وبَعدَهُمْ مِن عُلَمـاءِ البَصْرَةِ ... مَنْ زَادَ ذِكْرُهُمْ على التَّسْمِيَةِ
مِنْهُمْ أبـو عُبَيْدَةٍ قَـدْ أَدْرَكَا ... مَنْ كَانَ جَابِرٌ هُنَـاكَ مُدْرِكَا
كَـذَا أَبُو نُـوحٍ كَـذَا ضِمَامُ ... كَـذَا الرَّبِيـعُ كُلُّهُـمْ أَعْلامُ
وَبَعْدَهُـمْ إلى عُمَـانَ انْتَقَلَا ... وَضَرَبُـوا في الانْتِقَـالِ مَثَـلَا
بِطَائِـرٍ فَـرَّخَ في العِـرَاقِ ... وَلِعُمَـانَ طَـارَ بِانْطِـلَاقِ
كَذَاكَ أَيْضًا طَارَ نَحْوَ المغْرِبِ ... فَامْتَـلَأَتْ بِالْعُلَمَـاءِ النُّجُبِ
كَـذَاكَ نَحْوَ اليَمَـنِ المبَارَكِ ... فَاتَّضَحَتْ أَرْجَاؤُهُ لِلسَّـالِكِ
وَلِخُراسَـانَ وَفِيهُـمْ عُلَمَـا ... وَالآنَ مِـنْ غَالِبِهَا قَـدْ عَدِمَا
بَـدَا غَرِيبًـا وَسَـيَرْجِعَنَّا ... كَمَـا بَـدَا وَاللهُ يُخْلِفَنَّـا

الأستاذ: بإذن الله سيعود كما بدأ، وأنتم خير خلف لخير سلف، وما عليكم إلا الجِدِّ والمثابرة، وأحسنتَ يا محمد على هذه الأبيات العظيمة المعنى. سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

❋❋❋

(١) جوهر النظام، السالمي، ج ٤، ص ٣١٦.

المراجع

١- الإباضية في ميدان الحق، ناصر بن مطر بن سعيد المسقري، الناشر: مكتبة الأنفال، سلطنة عمان، الطبعة: الثانية، ١٤٣٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢- الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، عوض محمد خليفات، الناشر: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة: الثانية.

٣- الحركة الإباضية في المشرق العربي، مهدي طالب هاشم، الناشر: دار الاتحاد العربي للطباعة، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٤- الدعوة عند الإباضية بين الماضي والحاضر، أحمد بن سعود السيابي، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، الطبعة: الثانية، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٥- السِّيَر، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي (المتوفى: ٩٢٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سعود السيابي، الناشر: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: الجزء الأول: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، الجزء الثاني: ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

٦- اللمعة المضيئة في تاريخ الإباضية، بالحاج عدُّون قشار، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٧- جوهر النظام في عِلْمَيْ الأديان والأحكام، نور الدين أبو محمد عبد الله بن حميد بن سلُّوم السالمي (المتوفى: ١٣٢٢هـ)، الناشر: وزارة الأوقاف

والشؤون الدينية، سلطنة عمان، الطبعة: الثانية، ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م.

٨- دراسة في الفكر الإباضي، عمر بن الحاج محمد صالح بَا (عمر با)، الناشر: مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٩- طبقات المشائخ بالمغرب، أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (المتوفى: ٦٧٠هـ)، تحقيق: إبراهيم طلاي، الناشر: مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٠- معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب الإسلامي)، محمد بن موسى باباعمي وآخرون، الناشر: جمعية التراث، غرداية، الجزائر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١١- من مميِّزات الإباضية، سعيد بن حمد بن سليمان الحارثي (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٢- نفحات من السِّيَر، فرحات بن علي الجعبيري، تاريخ النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

❋❋❋